

مقولة الكشف واغتراب اللغة في شعر عثمان لوصيف من منظور الناقد عبد القادر فيدوح

The saying of disclosure and the alienation of language in the poetry of Othman Loussif from the perspective of critic Abd al-Qadir Faydouh

الحاج جفدم

djourdemhadj@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

ملخص:

تهدف دراستنا الموسومة بـ "مقولة الكشف واغتراب اللغة في شعر عثمان لوصيف من منظور الناقد عبد القادر فيدوح" إلى استجلاء مقولة الكشف من خلال فهم اغتراب اللغة، وفقاً للرؤية الصوفية بصفة عامة، ولدى عثمان لوصيف بصفة خاصة مستظهرين تجليات اللحظة الصوفية، لدى شاعرنا في عوالم أكثر كمالاتاً، هروباً من عالمه المندس.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، اللغة، اغتراب اللغة، الصوفية.

Abstract:

Our study, tagged with "the category of revelation and alienation of language in Othman Loussif's poetry from the perspective of the critic Abd al-Qadir Faydouh," aims to elucidate the category of disclosure through understanding the alienation of language, according to the Sufi vision in general, and that of Othman Loussif in particular, recalling the manifestations of the Sufi moment, among our poet in worlds More perfect, an escape from his profane world.

Keywords: Alienation, language, alienation of language, Sufism.

1. مقدمة:

تعد اللغة هي الأرضية التي مكنت الصوفي من ركوب فضاءات الروح، وعوالم الخيال الخلاق، ما يؤدي إلى الكشف عن المستور ورفع حجاب المجهول، حيث دُفع الصوفي في تجربته إلى تجاوز اللغة العادية بألفاظها وبلاغتها المألوفة لدى المتلقي ممارساً العنف عليها، إذ يمكن القول أن التجربة الشعرية الصوفية كانت ومازالت ظاهرة تتجاوز اللغة العادية، لأنها أضحت عاجزة عن وصف أحوالهم وتجاربهم الروحية

2. مقولة الكشف واغتراب اللغة في شعر عثمان لوصيف من منظور الناقد عبد القادر فيدوح

يقول الناقد "عبد القادر فيدوح" في فصله الموسوم بـ "مقام المنفي واغتراب اللغة في شعر عثمان لوصيف" ما نصه: "حين كان يخطّ الحرف بلوعة فورانية من خلال تجربته المريرة بكلّ تجلياتها، وجمالياتها، في مقابل الرغبة في التجانس مع الروح التّوّاقة إلى الانعتاق من الواقع المعمول؛ وفي ضوء ذلك لم يكن -الشاعر عثمان لوصيف- قادراً على مواجهة مصيره العليل، فانكفأ على روحه الأثيلة ببذر عواطف الكلمة في انبثاق الكينونة، من خلال الكلمة في الكتابة بالنار بوصفها علامات على وقفة الشاهد في هذا المدد الوجودي الواهن، الذي لم يكن له سوى حصّد عواطف الحياة، واجتزاز المسالك المستعصية على الفهم، نظير أنماط الحياة التي جرّدت من كلّ شيء، فغمرها بكمال الشيء، وأغدق الشعر الجزائري بكلمات متوهّجة، بنفائس المعنى المرام وجلالة اللفظة التائقة إلى الخلاص من ذرّ مغصّات الحياة، كما ملأ الحلم بعنفوان الدلالة بحسّه الصوفي (...) وعانقت روحه كلّ أخذٍ ومدهشٍ، فأتقن وأجاد، وأضاف إلى التجربة الشعرية الجزائرية المعاصرة أبعاد جديدة في اتساع مدى المعاني المفعمة بالطموح ورؤى مقام السالك إلى الوصل فاهتدى إلى تراتيم صوفية ومشاهدة نورية"¹.

ويقول أيضاً: "لقد أبدع الشاعر بالكلمة، وفي الكلمة وبها بنى مفارقة أيقونة الوقفة، وقفة الحال، ووقفة الشاهد، بعد أن اشتعلت دواوينه بألق الطفولة، وسحر الفضاء، وتعطّرت كلماته بوهج الخفي في الحقيقة الوجودية، وتضوّأت بغوايات السالك في إمعان النظر لتكوين المشهد بالنوراني/ السماوي... ويفهم من هذه المفارقة أنّ روح عثمان لوصيف مشدّدة بمطلق عوالم الأبدية المتعالية، وأكثر ما يتجلّى هذا في معجمه الصّوفي، (...) والمنسوجة بجماليّة الجمع بين المتباعدات والمتناقضات محلقة في فضاءات مغايرة، بحثاً عن الأعماق وتنبير الأغوار، فأعيتته كلمات تضيق بها معانيه ولا تتسع لها عباراته"².

يقول عثمان لوصيف:

أتملي جمالات وَجْهَكِ مغتسلاً برذاذ التساييح

تغلبني الحال، أغرق في نور عينيك

حيث المرايا وحيث الغوى والجنون

أنتشي فتنة

أنتشي... آه يا امرأة من أريج السماوات !

¹ عبد القادر فيدوح، الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر، مج 1، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2022، ص 245.

² المرجع نفسه، ص 246.

من صبّ فيك المدام وصاغك روحًا إلهية النبرات؟

إن المتأمل في قراءة الناقد عبد القادر فيدوح للخطاب الشعري الصوفي لدى الشاعر عثمان لوصيف، يستنتج جملة من الملحوظات والتي يمكن أن تدرجها ضمن ما يعرف "بنقد النقد".

1. يتميز الخطاب الصوفي الشعري لدى عثمان لوصيف ببنية تشكيلية تفارق فيها أنواع النصوص الأخرى مفارقة كمية ونوعية، إذ يعتمد في تشييد بنيته على عناصر تشكيل ينزاح عملها عن نسق الواقع والمألوف اللغوي في طبيعته التعبيرية السائدة، ويدخل في شبكة علاقات لا يمكن استقبالتها وفهمها وإدراك مقاصدها وتأويلها باستعمال الأدوات التقليدية بل تتطلب تلق خاص يتلاءم والطبيعة الجديدة للكتابة³.
2. إن تفاهة الحياة جعلت الشاعر عثمان لوصيف يرادوه الحنين للانفصال عن واقع يراه ماديًا، والاتصال بعودة الروح إلى مصدرها الأول، ومؤداه أنه يركب لغة تتوغل بالوعي الإنساني نحو أعماق معاني السمو وتخلصه من سجنه وتخرجه من هشاشة الواقع وتحلق به سماوات، المطلق اللامتناهي، بغية تجديد النبض الروحي وارتفاع أعلى درجات الصعود نحو المتعالي وتلك رتبة التجلي في حقيقة الرؤية الروحية العلوية⁴.
3. هذا السمو والتعالي ينتشبه المتلقي القارئ ممثلاً في الناقد عبد القادر فيدوح من الخطاب الشعري الصوفي لدى عثمان لوصيف، الذي سما باللغة إلى مدارج الكشف والعرفان حتى تجلت وكأنها لغة إلحادٍ وغطرسة، ولكنها في الحقيقة لغة أناس أرادوا أن يصفوا الله فوصفوا أنفسهم لشعورهم بأنه هويتهم، وأرادوا أن يصفوا الروح المحمدي فوصفوا أنفسهم لشعورهم بأنه حيّ فعال فيهم "إن هذه المعطيات في بناء النص الشعري، وتشكيله الفني، وأبعاده الجمالية والأسلوبية، تعد عند الشاعر عثمان لوصيف من صميم القرائن الدلالية لشاعرية متحررة، ومتشائمة من انحدار الذوات الغائرة في التيه، ولا تملك موقفاً إنسانياً يقودها إلى الخلاص، أمام زهول دهشة السؤال ..."، يقول الشاعر:

جرس أطارده، فيجرحني الرنين

صدى يسافر في يدي

غماصة تدنو وأخرى تهزّب

وأنا أهول في سهوب العمر

أبحث عن جراحتي التي انهمرت هنا

بالأمس مني هل رعاها الأنبياء

أم أنها طارت إلى آفاقها تتلهّب

وإذا الطبيعة كلّها سرٌّ يُكاشفني

³ ينظر: الحاج جغدم، إشكالية التلقي في الخطاب الصوفي، رسالة دكتوراه محفوظة، جامعة عبد الحميد بن باديس، 2013، ص 100.

⁴ ينظر، أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2018، ص 187.

فأبصر في مراياها الحميمة طفلة عصماء

تسقيني الحنان فأشرب.

4. إنّ رحلة الكشف عن المحبوب لدى شاعرنا وضغوط التلقي المفروضة عليه عنوة، ومعاناته من ضيق العبارة، جعله يرسم خطأً جديداً، ومعه لغة جديدة تتكلم دون وساطة العقل، إنّهُ يَحُلِّقُ لغته نشوتها الخاصة في أفق نشوته، ما مكّنه من تجاوز اللّغة العاديّة التي يألّفها المتكلمون والفقهاء والتأسيس لمنظومة لغويّة جسّدها "الفتح اللغوي ظاهرها تقليدي متداول، وباطنها يتناسب والحالة الروحيّة، لأنّ ذاته وتحاول الانفلات من عالم الماديات والارتقاء في عالم المثل العليا أملاً في اعتناق الكيان المفعم بالسّموم"⁵، يقول عبد القادر فيدوح: "ولعل الأهم هو أنّ الرّؤية التي يُنتج منها الشاعر تصوراتهِ، تتشرب من نبع اللاوعي، وجاذبيّة النبوءات في تجربة باطنيّة، تتعارض مع إنتاج السطح، وتتماهى مع العمق، متخذة من المعجم الصّوفي مطيّة لإيصال الحالة، أو ملازمة الأثر الوجداني، الذي ينبعث منه إحساس الشاعر المفعم بدلالات اللهب المتوهج"⁶.

يقول عثمان لوصيف:

توهج بكل بيانٍ

تلطّ

انصهر

في الشواظ النقي

وكن شرراً يتطاير

آه، أيتها النار

في البرّ والبحر تشتغلين

ومثل الأساطير ترتحلين

ولا شيء، يوقف تيارك المتوحش.

5. وعليه، فإنّ التجربة الصّوفيّة هي تجربة قلب وذوق لذا لم تعد تحتل اللغة العادية القاصرة عن تأديّة مهامها، لأنّ مخنة الشاعر عثمان لوصيف أكبر من أن تعبّر عنها تلك اللغة، إلا اللغة التي تخترق المجهول، وتستنطق الصّمت، وتستحضر عوالم خفيّة، وبهذا النتح اللغوي تمكّن الشاعر من إيجاد نمط لغوي تجاوز به المتداول، لأن لغته تفتح المجال واسعا لاحتمالات أكثر وتنشئ مساحة جديدة للفهم قوامها التأويل.⁷

⁵ ينظر: الحاج جغدم، إشكالية التلقي في الخطاب الصوفي، ص 103.

⁶ عبد القادر فيدوح، الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر، ص 247.

⁷ ينظر: الحاج جغدم، إشكالية التلقي في الخطاب الصوفي، ص 108.

يقول الناقد: "هكذا يشتقّ الشاعر لغته من نبع الأزلية، ليمتزج عنفوان الأبدية بفيض الرؤيا، ويجمع بين سرّ البدء، وسرّ الإبداع، وكأنّ الكتابة ليست إلا ذلك الطلسم الذي يتشكّل (...) ويتفجّر سحرًا وبيانا، ولذلك هو دائم العودة والرجوع إلى البداية، ليس من أجل تكرر التجربة، ولكن رغبة في الاكتشاف، اكتشاف سرّ الخلق، وهو في أثناء ذلك يتمزّق ويتشظى..."⁸.

يقول الشاعر:

"أيها البرق الذي يخطف خطفًا

أيها المشحون ومضًا وفجاءاتٍ وعنفاً

يا رسول الرعد * * * وفجر أضلعي

مزق صدري العاري * * * فجر حشايًا"

علني ألقى فضائي في قبائي

6. سعى الشاعر عثمان لوصيف في خطابه الشعري الصوفي إلى توظيف لغة الرمز والإشارة بوصفهما عنصرين مرتبطين بأحوال الذوق والوجدان، ذلك أنّ الصوفي لجأ إليهما لأجل التستر والتعتيم، ذلك أنّ أبرز هذه الرموز المستخدمة في خطابه تعبيراً عن الذات الإلهية، رمز المرأة الذي يحيل إلى العرفان الإلهي، ورمز الحمرة للتعبير عن الذات الإلهية، وكلاهما يعبر عن مقام وحال الشاعر.

3. خاتمة:

نستنتج مما سبق، أنّ التجربة الشعرية الصوفيّة لدى عثمان لوصيف تقوم على دعائم من داخل التجربة نفسها، على غرار الغموض والتمثيل والرمز والإشارة وكلها تنطوي تحت ما يعرف بالاغتراب اللغوي إذ يتميّز خطابه بالتكثيف الذي يتطلّب إعمالاً ذهنيًا فائقًا، ما يؤدي إلى ميلاد صورة فنيّة تنم عن قدرة الصوفي على التكلف والإبداع.

⁸ عبد القادر فيدوح، الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر، ص 278.

4. قائمة مصادر ومراجع البحث:

1. أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2018
2. الحاج جندم، إشكالية التلقي في الخطاب الصوفي، رسالة دكتوراه محفوظة، جامعة عبد الحميد بن باديس، 2013
3. عبد القادر فيدوح، الخطاب الواصف ومؤولاته في الشعر العربي المعاصر، مج 1، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2022